برنارد شو والمسألة اليهودية

بقلم منذر الطائي

اعتنت الدوائر العربية المثقفة في الاونة الاخيرة بالموقف الفكري والسياسي لكبار المفكرين العالميين من قضية اليهود واسرائيل ، فكتب الدكتور سهيل ادريس وكامل زهيري عن موقف جان بول سارتر واخرون عن موقف ارنولد توينبي واستمع الناس الى اراء كريشنا منون وبيير روسيه في ندوة الطلبة الفلسطينيين بالقاهرة . ورغم ان اخر مؤلفات برنارد شو قد خرج الى الوجود قبل اقامة اسرائيل فعسى ان يكون الحديث عن موقفه هو الاخر من المسألة اليهودية عموما وامعان النظر في جذور ذلك الموقف ودلالاته مساهمة متواضعة في استجلاء كافة ابعاد التحدي البشع الذي يواجه العرب مباشرة في فلسطين ويؤلف نضالهم ضده وكفاحهم لجوهره البرجوازي العنصري حلقة ثمينة في نضال البشرية التقدمية كلها في العصر الراهن .

تنعكس صورة شو في ذهن الرجل الغربي عادة كمناوىء للسامية ومماليء للدكتاتورية وقد عمل اليهود ومناصريهم لاسباب دعائية خلال الحرب العالمية الثانية خاصة على توكيد هذه الصورة الساذجة المفتعلة في الاذهان مما يدعو الى وجوب التعرف على الحقيقة عبر التكوين الفكري العام لشو .

من المفكرين الكبار صنف امتاز بالابداع النظري الحق واضاعة مكتسبات جديدة الى مجالات الفكر الخلاق مثل هيجل وداروين وكيركجرد وفرويد وصنف ينحصر دورهم الرئيسي في تحطيم الاصنام القائمة ومحاولة الا يصبحوا هم اصناما ويبرز من خلالهم نيتشه وكارل ماركس وشو نفسه .

لقد بدأ شو كتاباته الهادمة بالهجوم على الارستقراطية البريطانية المزرية وقيم النفاق والتطلع الطبقي والشرف المصطنع والرياء والاهتمامات السخيفة الاخرى في المجتمع الانجليزي ، ثم اكتشف ـ تحت تأثير فاجنر ونيتشه وابسن ان كل تلك القيم والامال الكاذبة انما هي درجات معدودات في سلم طويل للاخلاق والواجبات والمثل العليا الجاهزة التي تتشبث بدورها ـ حسب تعبيره الى قوى عليا مجهولة تختفي ما بين السحب مما دعا به الى شن حملته البارعة على كل تلك الاخلاق والمثل المجردة وما ادت اليه من فقدان الحب الحر لحيويته وجعل الزواج شكلا من اشكال القهر والتسلط والمرأة اداة لاثارة الرجل وارضائه فحسب وليست هدفا بذاته . والتي رأت في الارادة الفردية الخلاقة شيطانية وخبثا ولعنة . وقال بصريح العبارة ان طريق الحرية التي تتشدقها البشرية منذ الازل يمتلىء بحطام الواجبات وركام المثل العليا . والعبودية الحقيقية في الوقت الحاضر هي العبودية للمثل العليا والثوري من ينسف تلك المثل ويحطم الاصنام دون ان يخشى نظرات المجتمع الشزرة . وان لكل امرىء الحق في الا يضحي او يدفع بالاخرين الى التضحية من اجل مثل عليا لا يقتنع بها وما هناك من هو اشقى من انسان يمتنع عن القول او الفعل خلافا لمشيئة الاخلاق والنظم الجاهزة التي لا يؤمن بها ، وما دامت الحياة ارادة والارادة شيئا متطورا ناميا على الدوام فمن حقنا ان نحتكم الى انفسنا في مسائل السلوك ضد جميع المؤسسات والنظم التقليدية (١) .

وقد جعل شو شعاره في كل ذلك شعار ابسن : القاعدة الا يكون هناك قاعدة وهو الشعار (٢) الذي التزم به في الميدان السياسي ايضا. كتب سنة ١٩٤٣ : دعي ابسن الى ان يتخذ لنفسه بطاقة حزبية فرد بانه يجمع في ذاته بين اليمين واليسار ، لقد وجدت نفسي في عين الموقف تماما (٣) .

وفي الجانب الاخر لم يكن شو غافلا عن النموذج التاريخي الرهيب للعبودية الانسانية : التملك الفردي وهو النموذج الذي يؤلف في مجتمع كالمجتمع البريطاني في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين والنموذج الاخر الذي اشرنا اليه ـ الاخلاق الجاهزة وحدة لا تتجزأ في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية . فحمل عليه هو الاخر حملة اشد سعة وهولا وكتاباته ومواقفه بهذا الشأن غنية عن التعريف .

من حكم الثوار (في الانسان والانسان الكامل) : الملكية سرقة ، هكذا قال برودون ، انها المسلمة الوحيدة التي قيلت في الموضوع . ومن رسالة مؤرخة في ١٠ ـ ٣ ـ ١٩٤٢ : أود ان انصح الشعوب باختيار الشيوعية (٤) وان اوضح بعناية كيف تقام بدون ان يمسك احد برقبة الاخر ! .

وبسبب من اندفاع شو في هذين الجانبين معا ولما امتاز به من مزايا شخصية فريدة فانه يؤلف طرازا طريفا من الاشتراكيين الفوضويين. قال في تقريره الى الجمعية الفابية صيف ١٨٩٣ : تبدو لي لهفة باكونين الشديدة لتدمير كل الحكومات والكنائس القائمة وما لها من قوانين ومؤسسات دينية وسياسية وقضائية ومالية وعقابية وثقافية واقتصادية واجتماعية مبررة تماما ومفهومة من وجهة نظر الرجل المتعلم العادي الذي يؤمن بان تلك المؤسسات هي التي امست تصنع الناس بدلا من ان يصنعها هي الانسان (٥) .

---

(١) يلتقي شو هنا والنظرة الوجودية الى السلوك الانساني .

(٢) عن جوهر الابسينية في مواضع متفرقة ومن حكم الثوار الاولى في الانسان والانسان الكامل : القاعدة الذهبية هي ان ليست هناك قواعد ذهبية .

(٣) قال ابسن عن فرديته : انا وحدي مسؤول عما اكتب ، انا لا احد غيري . انا لا املك القابلية على الانتماء لاي من الاحزاب ، اقف وحيدا كالديدبان واحارب بنفسي . برنارد شو : حياته ، اعماله واصدقاؤه ـ جون ايرفن ص ٢٣٢ لندن ١٩٥٦ ومن ثم هاجمه لينين في مرض الطفولة اليساري كمثال للمثقف المتردد .

(٤) يعني بها المشاعية الاقتصادية وليس النظام السياسي المعروف . وتجد صدى لدعوته هذه في اندروكليس والاسد . انظر مدخل وارد للمسرحية ص ١٦٥ ط لونمانز وغرين ١٩٥٧ .

(٥) شو والمجتمع مقالة كينجسلي مارتن ص ١٢٢ لندن ١٩٥٣ ويقول نفس الكاتب ص ٥٠ : ذهنيا وذوقيا كان شو فوضويا ومثله برتراند رسل في صور من الذاكرة ص ٨٧ ت احمد ابراهيم الشرباصي .

ولنفس السبب ومع اهتماماته الفلسفية الكثيرة وتفننه في الكتابة المسرحية فانه يظل سياسيا قبل كل شيء وتظل السياسة الشيء الجوهري في كل ما كتب كما قال تشسترتون احسن من كتب ويمكن ان يكتب عن شو فيما يرى جون ايرفن (٦) .

ومن المزايا الفريدة لشو : الوضوح والسخرية فهو يطلق اراءه في كل قضيه بصراحة لامتناهية لحد السماجة كما اتهمه البعض ، وبعبارات جازمة لا تقبل اي لبس او ابهام وكتاباته فيما يرى جون مثل كتابات سويفت وفولتير خالية من الهمس والظلال والرمزية .

واما السخرية فخير اداة تنفع رجلا في موقف كموقف شو يكد ان يهاجم كل شيء ولا يعتقد اعتقادا جازما باي شيء ، يهتك متنافقات المجتمع البرجوازي ويفضح تقاليده ومعاييره المهترئة . كما ونرى ان الفكاهة والسخريه من سمات الرجال ذوي الفكر المنفتح والنفوس الرحبة على عكس الرجال المتعصبين لارائهم الميالين للتسلط .

لقد نشأت العلاقة المهمة لشو بالمسألة اليهودية ولكن من الناحية السياسية السلبية من جراء احدى فعالياته السياسية بالسمات المارة الذكر وهي انتقاده للديمقراطية واطراؤه لبعض الزعماء المعادين لها في بعض فترات حياته .

فلقد كان شو عديم الايمان بقابلية « الاغلبية » في حسم القضايا الاجتماعية الكبرى وبالتالي ساخرا بقادة احزابها وبرلماناتها وبمؤتمرات الساسة الدوليين متهما اياها بالعجز والضحالة . وفي مسرحيته عربة التفاح نستخدم اصوات الناخبين لمجرد وضع اناس غير اكفاء في اماكن غير مناسبة (وانظر جود ص ١٦٥) وفي « على الصخور » يتهم الحركة العمالية بعدم ادراك مصالحها الحقيقية البعيدة المدى (٧) .

ولعدم وضوح رؤيته الكاملة لاسباب عجز الاغلبية في الحكم والذي اصبح اليوم في عداد المبادىء السياسية الثابتة (٨) ولتوقه الشديد الى الاصلاح الاجتماعي الفوري والقضاء على الفقر ابشع ما يمكن ان تعانيه الامة كما قال ، فقد ابدى اعجابه ببعض الحاكمين بغير الوسائل الديمقراطية المعروفة كقيصر الذي صوره مثاليا عاجزا عن العمل في مسرحيته « قيصر وكليوباتره » على عكس نابليون الذي رسم شخصيته في مسرحية رجل القدر نموذجا للرجل المطلوب بنظره : اللاديني ، غير المتعلق باحد اوهام الاخلاص او الوطنية او المثل العليا المجردة ، وقال عنه انه ذو رؤيا واقعية واضحة للطبيعة البشرية في شؤونها العامة(٩) ثم كان رضاؤه عن بعض اعمال موسوليني وهتلر وستالين (١٠) .

وحين نضع رأي شو هذا في مكانه الصحيح يبدو من الضحالة اتهامه بالفاشية . واذا كانت الفاشية تعني على مر التاريخ امتياز فئة معينة على بقية الناس لسبب لا عقلاني ،فهذا ما يدعوها الى احتقارها لهم وسيطرتها عليهم ومحاولة القضاء على كل اعدائها . ونحن نؤكد على العنصر اللاعقلاني في الموضوع وانعكاسه العملي : افناء المعارضين اذ لا نجد اية مفاهيم دقيقة ومحددة لدى دعاة الفاشية في اي زمان او مكان وسواء اكانوا من حملة « الرسالات الدينية المقدسة او العنصرية او الارستقراطية الاجتماعية والنخبة » وبهذا ايضا يمكننا تعليل تغزل الفاشيين دوما بالروحية الدينية . يقول ستندال في«الاحمر والاسود» : الفكرة التي تقدم للطغاة اجل الخدمات هي فكرة الاله . الم يقل موسوليني ان الدين اعمق مظاهر الروح الانسانية وهتلر في « كفاحي » : ان اصول الدين هي القوانين الاساسية للدولة .

وامامنا ايضا الفاشية الاميركية ما عنصرها الحقيقي ؟ حمل«رسالة العالم الحر» والدفاع عن « القيم الروحية » للانسان المعاصر ضد الاشتراكية العلمية وما هو انعكاسها العملي ؟ انه التمييز العنصري والنعالي على كل « اجنبي » عن الولايات المتحدة وهو ما يشعر به كل زائر لها ومجاله الاوسع : مذابح الدومينيكان والكونغو واليمن وكوريا وفيتنام .

ومن هنا ايضا تحذيرنا لبناة ودعاة الاشتراكية العلمية في وطننا العربي من قلبها الى « اسطورة ... صوفية دينية .. » خاصة وقد قلب سان سيمون اشتراكيته الى « مسيحية جديدة او ديانة نيوتن » وكادت ان تنقلب الماركسية بايدي الماركسيين الى « ديانة » كما عبر برديائيف .

... واذا كانت الفاشية بهذا المعنى فقد وضح لنا فكر شو بعناصره العقلانية واللاتعصبية وعدم تشبثه بالتصورات المطلقة وتأكيده اللامحدود على المساواة الاقتصادية مما لا يتفق واياها ابدا وحتى مفهومه عن السوبرمان ليس اكثر من مبدأ يوجيني صرف اصبح معترفا به من العلم الحديث بان يتطور الجنس البشري ككل الى مرحلة بيولوجية يصبح فيها الرجل من « عامة الناس » اعلى مستوى من يوليوس قيصر بنسبة ما يعلو ارباب الحرف الانجليز اليوم على مستوى رجل الغابات الاسترالية البدائيين ـ كما يقول شو .

وبنفس الكيفية لا يمكن اتهام شو باللاسامية ايضا وقد قيل ان غضه من قيمة الديمقراطية وخاصة في مسرحية جنيف (١٩٣٩) قد وضع العديد من انحجج بيد الدكتاتورين موسوليني وهتلر لارتكاب اعمالهما التدميرية (١١) واثارت المسرحية ثائرة اصدقائه وقال بعضهم عنها انها فاسية وغير لائقة وتجاهلت المعاملة المحجفة لهتلر تجاه اليهود ورغم احتجاج الاميركان والانجليز عليها (١٢) .

والحقيقة ان شو لم يكن جاهلا بطبيعة النظام الهتلري وقد حمل الغرب مسؤولية اتجاه المانيا بعد هدنة ١٩١٨ نحوه ورأى انه مجرد هوى جنوني لا نظاما سياسيا بالمعنى المعروف وكان عالما باضطهاده اليهود . ويعتبر شو من القلة الذين تنبأوا بفشل هجوم هتلر على الاتحاد السوفياتي بمقالته المبكرة في نيوز كرونيكل عدد ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٤١ (١٣) .

والخلاصة ان ليس هناك اي التقاء نظري بين الشوفية والفاشية او اللاسامية وانما كما قالت بلانش باش (١٤) : لقد اقتنع شو بالدكتاتوريين لاصلاحاتهم التي كانت تجذبه دائما . لقد آزر هتلر عندما وضع حدا للبطالة ووافق موسوليني عندما قضى على مستنقعات بونتاين ولم يبدأ بتقدير خطورة حقدهما على اليهود والشعوب الملونة

---

(٦) ووافق جود على قول تشسترتون : شو ص ١٣١ لندن ١٩٤٩

(٧) مما يذكر هنا ان نهرو قرأ هذه المسرحية مع غيرها من مسرحيات شو في السجن وقد تمتع بمقدمتها والجدال الدائر ما بين المسيح وبيلاطس فيها . جواهر لال نهرو : فرانك موريس ص ٣٢ ؛ نيويورك ، وقد يبدو غريبا اعجاب رعيم لم يتخلل عن ايمانه بالديمقراطية وعمله من اجلها يوما هو نهرو بكاتب هذا انطباعه عن الديمقراطية ولكننا لو فهمنا المناخ الفكري التحقيبي الذي انتج هذا الانطباع لزالت الغرابة .

(٨) عبر عنه هارولد لاسكي بقوله ان القرارات الحاسمة في كل شيء لم يعد يتخذها الناخبون او النواب او السياسة وانما الخبراء وحدهم وهذا ما تحسس به شو بصورة بدائية عندما قال في هيجنبرباره (١٩٠٧) : ان اخطر المهام تعهد اليوم الى لجان مؤلفة من نفر من ادعياء المعرفة بعلوم الاقتصاد والنفس وهم لا يعلمون منهما اكثر مما يعرفه الرجل البدائي عن سطحية الارض .

(٩) جود ص ١١٨ .

(١٠) يرى جود ص ١٤٩ ان من اوجه الشبه العديدة بين افلاطون وشو كراهيتهما للرجل الشارع وانه تحت تأثير جمهورية افلاطون لم يعد شو مؤمنا بتحقيق الاشتراكية عن طريق الاغلبية البرلمانية .

(١١) برنارد شو : الانسان والكاتب ـ اودري والياميس ص ٣٦ ، نيويورك ١٩٦٣ .

(١٢) جون ايرفن ص ٥٦٤ .

(١٣) برنارد شو : حياته وشخصيته ـ هيسكت ـ بيرسون ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ و ٤٣٨ حاشية ، لندن ١٩٤٨ .

(١٤) ثلاثون سنة مع ج.ب.ش ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ط ٣ لندن ١٩٥١ .

وهو نفسه لم يكن يشعر بأي شعور ضد اليهود الذين كان بينهم عدد من اصدقائه (١٥) .

الا ان هذه العلاقة السلبية لشو بالمسألة اليهودية لا تعني انه لم يكن ذا نظره خاصة اليها فقد وردت اشارات عديدة في مؤلفاته الى اليهود واليهودية وفي كثير من الاحيان يتفق ونظرة الكثيرين الى اليهود كاناس يحملون خصائص اجتماعية معينة ففي « الفاجزي الكامل اشارة الى المرابي اليهودي وفي حوار قصير بين الزنجية واليهودي في مسرحية « الزنجية تبحث عن الله » تستهجن الاولى عقيدة ليهودي بظهور المخلص الذي سيصلح كل شيء . وميندوزا زعيم العصابة التي تدعي الفوضوية الاشتراكية في الانسان الكامل يعلن عن شرف كونه يهوديا وانه لن يكون المطوع الاخير عندما تحتاج الصهيونية لزعيم يجمع شمل الجنس اليهودي على ارضه التاريخية فلسطين (١٦) ويظهر في المسرحية مثال للانتهازي السياسي الذي يتسرب الى قيادة الحركات السياسية ويحمل كل الشعارات في سبيل تحقيق مطامعه .

ويضع شو يده على المفهوم الصحيح لليهودية في مقدمة « الزنجية تبحث عن الله » (١٧) عندما يحددها ليس كمجرد حالة نفسية يعانيها الفرد اليهودي بسبب اضطهاد الاخرين له ونظرتهم غير الطبيعية نحوه بل كاندفاع قبلي اهوج تحت تأثير الوهم القائل بان اليهود هم شعب الله المختار والورثة الطبيعيون للارض ومحتكرو القدسية الالهية وبذلك وضعوا الاساس النفسي والمعنوي ليس « لحالة الاضطهاد » بل « لواقع استعبادهم واستغلالهم الاقتصادي » للاخرين ، فما داموا هم الورثة الحقيقيين للارض وثرواتها فلماذا لا يستغلون الغير ويحرمونهم منها ؟ وبذلك اكمل شو النصف الثاني للتفسير الماركسي للمسألة عندما ربط بين سر اليهودي المتدين واليهودي الواقعي وكشف ان نظرة الاخرين لليهود تقوم على اساس موضوعي بحت هو الطبيعة الفاشية التسلطية للعقلية اليهودية ووجهها العملي التجارة لا المزاج .

واذا كانت اليهودية في جوهرها ، والصهيونية وجهها السياسي، اضطهادا فاشيا منظما للشعوب مرتكزا على اساس غيبي بحت (١٨) فان الرد عليها لن يكون بمثل ما فعل هتلر وقد اعتبر شو اضطهاده لليهود من قبيل الحروب الدينية (١٩) وانما بسلب اليهودية سلاحها المادي الا وهو الملكية الفردية او كما قال ماركس في المسألة اليهودية « وحين ينجح المجتمع في الغاء الجوهر العملي لليهودية : المتاجرة وشروطها ، عندئذ يصبح وجود اليهودي مستحيلا » وهو الهدف الصميم الذي ناضل من اجله شو طويلا وينبغي ان يناضل من اجله العرب قبل غيرهم ان ارادوا التحرير الحقيقي لوطنهم وللانسانية من الصهيونية ... ولا طريق اخر .

الاعظمية ـ العراق

مزاحم الطائي

(١٥) هتلر اينشتاين وكان يعلق صورته في حجرة المكتب الى جوار نيتشه وديكارت وقد حياه اينشتاين بكلمة ، انظر كتابه : العالم كما اراه، ص ٣٧ ، نيويورك ١٩٤٩ .

(١٦) الانسان والانسان الكامل ١٩٠٣ ص ١٢٠ ط بنجوين .

(١٧) ص ١٦ ط بنجوين .

(١٨) ذهب توينبي في ندوته المنشور عنها بمجلة الكاتب القاهرية ابريل ١٩٦٥ الى ان اساس الصهيونية ليس دينيا لان كثيرا من قادتها غير متدينين . ان توينبي يفهم الدين هنا بمعناه الظاهري والدين ليس مجموعة طقوس او سلوكية معينة فحسب وانما هو قبلها حالة لاعقلانية منفعلة وعقائدا غير واضحة او دقيقة .

(١٩) مقدمة الزنجية تبحث عن الله ص ٢١ .

صدر حديثا :

الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية

بقلم الدكتور حسن صعب

كتاب هام يضم عدة ابحاث قيمة تنبع من معين واحد ، هو معين الايمان بالاسلام ، والاعتقاد بقدرته على ان يواجه تحديات الحياة العصرية بالروح الخلاقة نفسها التي جابه بها مختلف التحديات منذ نشأته

٣٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب